الصحة في أرياف سورية

درس علمي حديث

ملخص لكتاب الدكتور ستر [1]

بقلم جورج عبود الاشقر

نقول « درس علمي » لان المؤلف قد وصل الى الحقائق الواردة في هذا الكتاب بالطرق العلمية المبنية على دقة الملاحظة وصحة الاستقراء والتنسيق ثم الاختبار وقد ثبت له ان الطريقة التي اتبعها في درس مجتمع معين يصح تطبيقها في درس كل مجتمع وتأتي في كل حالة بالنتيجة المطلوبة

« والكتاب قد وضع ليلائم العلماء وهذا من جهة سبكه وسرد الحقائق فيه وليفع الموظفين الرسميين في ادارات الصحة العامة . وليوافق ايضاً الذين يودون ان يقفوا على حالة الامة من الوجهة الاجتماعية فقط . فهو اذاً يتناول جميع الذين يهمهم الامر مع اختلاف وجوه نظرهم في الاهمية » هذا من جهة غرض المؤلف في كتابه . والذين عاونوا المؤلف في درس حالات الارياف السورية الصحية ارادوا مع اهتمامهم الكلي بالوصول الى الحقيقة — ان يعلموا سكان القرى التي درسوا حالاتها وسائل واساليب وعادات صحية افضل مما اعتادوه في هذا الصدد . وقد كانوا اطباء وممرضات واساتذة وطلبة عم وقد تدربوا على عملهم قبل ان ولجوا بابه فهذا يجعلنا ان نرتاح الى تقاريرهم ونركن الى اقوالهم

والصحة العامة كما جاء تعريفها في هذا الكتاب هي « حالة القوم الصحية وما يعرفونه من القواعد الصحية وما يمارسونه منها والعوامل المحيطة بهم وتحت مطلق تصرفهم لزيادة العافية فيهم »

فبناء على هذا الحد قام من ذكرنا برحلة الى بعض القرى السورية الثانية والقوا على اهلها اسئلة كانوا قد اعدوها من قبل وكانت هذه الاسئلة تشمل كل حالة لها علاقة بما يؤثر في الحالة الصحية العامة كمعرفة سكان هذه القرى بالادوية او اسباب المرض او صحة الطفل او النظافة او الطعام او كيفية الوقاية من الامراض الوافدة الى ما هنالك من المطولات

---

(1) A Controlled Experiment on Rural Hygiene in Syria By Stuart Carter Dodd Ph. D. Professor of Sociology American University of Beirut

ومن قبل التجربة كانوا قد القوا الاسئلة نفسها على غير هذه القرى وجمعوا من مكانها ما يمكن ان يكون من الاجوبة عن السؤال الواحد

ثم كانوا يستعينون بمعرفة اطباء ماهرين واساتذة خبيرين علامة ايجابية لكل جواب يطابق حقيقة فتوصلوا بهذا الى معرفة المقياس الرقمي لكل عائلة ومعدل مجموع معدلات العائلات في القرية الواحدة كان مقياساً رقميًّا لتلك القرية . وللوصول الى معدل العائلة الواحدة كانوا يلقون الاسئلة ذاتها على عضوين من هذه العائلة ولكن على كل منهما على انفراد من دون ان يعرف احدهما ما اجاب الآخر . وعادوا بعد سنتين وألقوا الاسئلة ذاتها على العائلات نفسها وعلى المخبرين الاولين وقابلوا معدل القرية الواحدة في الزيارة الاولى به في الزيارة الثانية . وغدئذٍ تمكنوا من المعرفة هل كانت القرية تسير متقدمة من هذه الناحية ام لا . والكتاب يقول « ان كل تغير في الحالة النجمة التي يصبو المجتمع اليها هي تقدم » ولمعرفة معدل سرعة هذا التغير ومقدار قابلية اهل القرية له اتبع المؤلف المعادلة الرياضية التالية

ان يطرح معدل القرية الواحدة في الحالة الثانية سنةً في الزيارة الاولى ثم يقسم الفرق على الزمن بين الحالتين . وهذا طبقاً للقاعدة الطبيعية المعروفة وهي ان الزخم مقدار قوة حركة الجسم ويساوي ثقله مضروباً في سرعته . فتغير السرعة بين الزمن الاول والزمن الثاني في الزيارتين يدعى زخم فاذا ضربت الزخم في عدد القوم الذين ازدادت سرعة تقدمهم ونجاحهم كان لك معرفة مقدار القوة الاجتماعية العاملة في نجاحهم

ومع كل الجهود التي بذلها هؤلاء لاتقان عملهم لم يتوفقوا للوصول الى كل الحقيقة لاسباب سيكولوجية وجهل المخبرين او للتباين في نظرهم الى الامور المسؤول عنها . « ولا يظنّ القارىء ان ما ذكر في هذا الكتاب يشمل جميع الفلاحين او جميع سكان المدن في سوريا بل هو صورة تمثل طرفي نقيض ، هما احط قوم في سوريا وارقى فئة فيها »

« وقد درست حالة قسم صغير من البلاد لا يصح ان يكون عنوان البلاد كلها ولكن يمكن ان تتخذ الطريقة المتبعة وسيلة لدرس حالة جماعة اوفر عددًا »

وللتثبت من صحة الطريقة المتبعة وصحة النتائج التي وصلوا اليها بالاستقراء قد حصروا دروسهم في ناحية من بلاد العلويين وقسموا الناحية الى قسمين انشأوا في الاول منها مستوصفاً نقالاً تحت رعاية جمعية مؤسسة الشرق الادنى واهملوا القسم الثاني اهمالاً تامًّا . فعلوا هذا بعد ان درسوا حالة القسمين ووجدوها متماثلة متشابهة فيها . وعادوا بعد سنتين من عمل المستوصف في القسم الاول ودرسوا حالة القسمين معاً وعرفوا من هذا مقدار تأثير العامل الاجتماعي الذي هو المستوصف في نجاح حالة القسم الاول

اما القرى التي اتخذوها مركزاً لتجاربهم وتمثل المستوصف فواقعة في قضاء مصيف من بلاد المعرين اربع منها على مرتفع صخري يعلو عن السهل ثلاثين متراً وثلاث منها في سهل وكلها سواء مع ما في كلمة المزرعة من معنى وكانت احدى هذه القرى تختلف عن الاخرى في كل شيء لان سكانها من الارمن المهاجرين وقد بنيت القرية لهم بحسب ارشاد جامعة الامم وتحت اشراف المفوض السامي في بيروت . سكان اربع من هذه القرى يستقون الماء من آبار عملاً على الامطار . وفي القرى الثلاث الاخرى ينابيع . وعدد سكانها جميعاً ستمائة نسمة فيها ثلاثة آلاف نفس معدل الوفيات فيها ٥٦ بالالف ومعدل المواليد ٦٧ بالالف غير ان هذا المعدل يختلف في القرية الارمنية الماز ذكرها فالوفيات فيها سبعون بالالف والمواليد مائة وخمسة بالالف

وهذه البقعة من المعمور علاقة بالماضي فقد كانت عامرة في زمن الرومانيين اذ لا يزال في مصيف اثر من طريق رومانية كانت تربط انطاكية بداخلية البلاد . وفي قرية منها قطع من الرخام محفور عليها علامة الصليب وحروف لاتينية مما يدل على ان عهدها يرجع الى العهد المسيحي الاول . وعلى بعد ساعة من احداها خرائب قلعة ابو قبيس ومقابلها الى الجهة الشرقية آثار قلعة سجار وفي هذين آثار القرون الوسطى وآثار العرب والصليبيين وخرائب قلعة مصيف يرجع عهدها الى زمن الحشاشين وسلالتهم لا تزال في القرى الواقعة الى جنوب هذه القرى . كذلك في البلاد اثر من الحكم التركي فتركيا خلعت عنهم نير اسيادهم الاقطاعيين قبلها وخلعت عليهم نيرها هي

اما حالة هذه البقعة من الارض من الناحية الاقتصادية فسيئة للغاية . البلاد زراعية بحتة فسكانها رعاة ومزارعون ، ومعاملاتهم الاقتصادية مبنية على المقايضة فالنقود عندهم لمعرفة قيمة الاشياء لا لدفع الثمن لانها قليلة جداً بين ايديهم واجور اليد العاملة عندهم بخسة جداً فأجرة العامل لا تزيد عن الستة غروش سورية يومياً (عشرون مليماً) . ومعدل دخل العائلة الواحدة مائة ليرة سورية سنوياً (٢٧ ليرة مصرية) . الفلاحون لا يملكون الارض التي يستغلونها بل هم شركاء يعطون اصحاب الملك اربعين بالمائة من غلة الارض . ضرائب الحكومة باهظة جداً . وقد فرضها ذوو الامر متخذين مواسم السنوات ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ قاعدة لفرضها ان عداً او ثمناً فاذا فرضنا ان معدل نتاج ارض احدهم كان مائة في هذه السنوات وكان سعر الوحدة من المائة بمائة فكانت الفريضة ٤٠ × ١٠٠ × ١٠٠ وهم يتقاضون اليوم القيمة ذاتها بصرف النظر عن مقدار ما تنتجه الارض في هذه الايام وعن ثمن هذا النتاج وسكان هذه القرى مثقلون بالديون والفائدة باهظة جداً فقد تبلغ احياناً خمسين بالمائة . فهذه الحالة الاقتصادية جرت معها سوء الحالة الصحية وهذا امر طبيعي

القرية الارمنية فقط مبنية بالحجر اما البيوت في القرى الاخرى فمن الطين ونوافذها صغيرة

جداً وهذا مما يساعد على عدم نظافة سكانها وعلى كثرة البراغيث فيها

المسيحية ديانة سكان القرية الارمنية والباقون نصيريون ينهم سنيون وقليلون من عبدة الشمس والقمر وفي هؤلاء فريق يعتقد في الجن والخرافات والتسليم وهذا يقعدهم عن الجد والنشاط

المرأة عند العلويين لا قيمة لها وهي نصيرية فقط عند زواجها وقد خلقت لارضاء زوجها وولادة الاولاد والعمل لراحة الكل وهي تباع وتشترى فيختلف ثمنها باختلاف جمالها ومقدرتها على العمل وقد يصل الى الستين ليرة سورية (ستة عشر جنيهاً تقريباً). ثم ان تعدد الزوجات عندهم مباح . نصف اطفالهم يموتون قبل بلوغهم الثانية من العمر وفريق وافر منهم يموت قبل الوصول الى العاشرة. الامية في هذا القرى ما خلا القرية الارمنية تبلغ تسعين في المائة وفي القرية الارمنية عشرين في المائة . المدارس ينهم كتاتيب المشائخ المعروفة . العلاقات الجنسية بينهم امر طبيعي كالاكل والشرب يذكرها المتزوجون دون خجل او وجل وعند الفحص وجد أن بينهم اثنين او ثلاثة فقط مصابون بالامراض التناسلية

وقد اجري الدرس نفسه على ثلاث قرى في البقاع الى جنوب بعلبك حالتها مشابهة لما ذكرنا كل التشابه إلا أن بيوت هذه من الحجر وحالتها الصحية افضل من حالة تلك وان هذه القرى اقرب الى العمران من تلك . وان معدل الولادة فيها ٢٧ بالالف ومعدل الوفيات ٥٣ بالالف وهذا ما ينذر بانقراض سكان هذه القرى انقراضاً تاماً ولعل السبب في كثرة الوفيات وجود الملاريا مزمنة في هذه القرى وهي تصل كالمنشار تقتل الاطفال وتساعد على العقم

والحد الاقصى الآخر كان في رأس بيروت فقد درست حالات خمسين عائلة في رأس بيروت هم من الطبقة الراقية جداً وفي محيط صحي لكثرة المستشفيات فيه والارشادات الصحية وهم من فئات مختلفة كاطباء ومحامين وتجار وغيرهم. معدل الوفيات في هذه العائلات ٤٫٧ بالالف (اربعة وسبعة أعشار) بينما معدل الولادة ستون بالالف. ويبلغ متوسط دخل العائلة الواحدة منها ما يقارب الثلاثمائة وخمسين جنيهاً مصرياً . فالحالة الصحية في الارياف بالقياس الى ما هي في المدن كنسبة ٢٨ الى ٦٥ ومعدل عدد الانفس في العائلة الريفية ٤½ بينما هو ٦½ في المدن . الولادات اقل منها في الارياف. ومعدل العمر في الارياف خمس عشرة سنة ونصف وفي المدينة ست وعشرون سنة. ولست تجد عائلة واحدة من العائلات الريفية قد سلم كل افرادها بينما ظهر ان عشرين عائلة من احدى وعشرين عائلة في رأس بيروت لم يمت فيها طفل واحد بل كل من ولدوا يتمتعون بصحة جيدة وهم أحياء يرزقون

ان كل الامراض التي يشكو منها سكان هذه القرى قابلة للشفاء وسهل اتقاء شرها ويمكن القضاء عليها وأكثر الامراض شيوعاً بينهم الملاريا وكثيرون منهم يعرفون الكينا وكيفية

استعمالها ولا يعرفون مصدر الملاريا وكيفية انتقالها من مريض الى الآخر . وما قيل عنهم في الملاريا يصح على الامراض الاخرى كالتيفود والجدري والحصبة وغيرها فهم لا يعرفون كيفية الوقاية منها ولا تأثير الطعام فيها وزد على ذلك فهم يجهلون التعقيم في الجروح والقروح . ثم ان حالتهم الاقتصادية تحول دون عزل المصاب بالامراض الوافدة كالجدري . وهم يقبلون على التلقيح ضد الجدري ولا يخافون منهُ . ويخافون امراض العين جدًّا ولكنهم لا يجلد لهم على مداومة ما يشير به الطبيب من المداواة ولا يعرفون كيفية الوقاية منها . فقد تمسح الام المصابة بالرمد عينيها بطرف ثوبها القذر ثم تعود وتمسح عيني طفلها بالثوب ذاته من دون تطهيره . ولخرافات شأنٌ مهمٌّ في تطبيبهم فان لم تشفه التعاويذ يطبونهُ بالحجر الاملس او بالخرزة الزرقاء او غيرها . الامهات جاهلات لا يعرفن كيفية العناية بالاطفال غير ان الطبيعة قد جهزتهم بأفضل الأطباء وخير الادوية ألا وهي الشمس وما تحمل في اشعتها من القوة . ثم ان الامهات يرضعن اطفالهن حتى يبلغوا السنة تقريباً

انواع اطعمتهم قليلة جدًّا ولا يأكلون الخضروات في الشتاء مطلقاً ولهذا طعامهم الشتوي قليل الفيتامين

ثم ان وجود المياه بعيدة عنهم وفقرهم يحولان دون نظافتهم فاذا اخذنا ما يستهلكونهُ من الصابون مقياس النظافة نجدهم قذرين غير نظيفين

وهم لا يعرفون كيف تفتك الحشرات كالبعوض والبراغيث والقمل والبق وكل ما يعرفونهُ عنها انها من الله . ولا يدركون ما لها من الاثر في امراضهم ونقل العدوى

في كل تلك المنطقة طبيب واحد موظف حكومي مركزه مصيف يقوم بأعمال المستوصف الحكومي ويزور القرى التابعة لمصيف مرة كل شهر وهو يقضي ستة ايام في الزيارة ينتقل من قرية الى اخرى وكل اعماله تنحصر في المعالجة والتطبيب وهو لا يحرك اصبعاً في تعليم الاهلين الوقاية من الامراض وما تستلزمه القوانين الصحية . وايضاً وجد ان الوقت لا يتسع لديه لتابع المعالجة لتصل حالة المريض الى ما يصح السكوت عليه وليس في حيازته ادوية لمحاربة بعض الامراض فلهذا زياراته قليلة الجدوى

ومتى عرف القارئ هذه الحالة يمكنهُ ان يقدر عمل مؤسسة الشرق الادنى حق قدره فقد انشأت كما اشرنا سابقاً مستوصفاً سيارًا في القرى السبع التي اتخذت للدرس والاحصاء . ولم ينحصر عمل رجالها في التطبيب والمعالجة بل تناول حالات اجتماعية اخرى كانشاء صفوف للامهات والصبايا ومدرسة مجانية للاولاد الصغار وكانوا يستخدمون الفانوس السحري لشرح بعض الامور الصحية . وقد علموهم كيفية غرس الاشجار وبناء (المراحيض) . والذين قاموا بهذا

العمل طبيب وممرضات . فكان الطبيب يزور كل قرية مرة في الشهر وتقوم احدى الممرضات بزيارة القرى مرة كل اسبوع وهي كانت تذهب الى بيوت المرضى لتعالجهم هناك . وكثيراً ما كانوا يطلبون الى سكان القرية ان يحاضروا بعضهم من الامور الصحية ويضيق المقام عن سرد الحوادث التي قام بها اعضاء هذه البعثة ولكن في الحادثتين التاليتين قياس لما لا يتسع المجال لذكره

تموز (يوليو) ١٩٣١: دعيت (مس سلاك رئيسة الممرضات) لزيارة امرأة طرشاء (صمّاء) قال لها جارانها ان طرشها من الدواء الذي حقنها به الطبيب فلما وصلت اليها كثر زائرانها الذين كن يصرخن في اذنيها ساخرات وكان الوقت مساء فاستعنت بما لديّ من الآلات والادوية وفحصتها فوجدت شعرها وما لصق به من الاقذار قد لصق على اذنيها فالحال جززت شعرها ووصلت الى اذنيها فوجدت الاقذار قد سدتهما فأزلت الاقذار بالماء والصابون والحال عادت اليها حاسة السمع

آب (اغسطس) ١٩٣١: امامنا حوادث حادة من عسر الهضم في الاطفال. والاطفال يسمح لهم ان يتناولوا كل ما تصل اليه ايديهم من المأكول. ولنجاتهم من اوجاعهم نجيء بهم الى مدارسنا ونعتني بهم اعتناء خاصًّا ليستريحوا من اوجاعهم

وها كم ما قالته الرئيسة في تقريرها

كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩٣٢: ان المراكز التي انشأناها لمعالجة اهل هذه القرى قد جعلت البدوي والعلوي والارمني على مستوى واحد فكل منهم كان يجيء الينا للمساعدة وكنا نحن نقوم بقسطنا من العمل بكل لذة وبأفضل ما لدينا من الطرق فبقينا مدة هذه السنوات الثلاث أصدقاء لهم كلهم وهم يقدرون لنا هذه الصداقة حق قدرها واننا نحسب هذه الفرصة منحة من الله . اما حالة البلاد بعد عمل المستوصف المذكور فتظهر من الاقرارين التاليين

« الحمد لله منذ جاءت الينا سلاك (Miss Slack) لم يبق عندنا مرض . والحكيمة جعلت قريتنا سماء »

« منذ سنوات لم نر اولاداً يلعبون في الازقة وكانوا جميعاً يموتون قبل مشيهم . اما اليوم ففي القرية ثلاثون منهم يركضون ويمرحون والفضل في هذا للحكيمة »

***

واذا اردنا ان نعبر عن التحسين بالارقام فنقول ان حالة هذه القرى تحسنت بين ٢٠ ٪ و٦٥ ٪ والفضل في هذا يعود الى مستوصف مؤسسة الشرق الادنى العامل الوحيد في تحسين هذه القرى